من العالم الى البلد العربي، أو من بلد عربي الى آخر، إلّا بعد هياط ومياط، وعبر جيش من الجرّاحين، الذين يجرون مختلف عمليات «الاستئصال» و «الترقيع»، و«التجميل»، بشكل تضيع معه الوسيلة المسكينة هويتها، وجدتها. ان أغلب العرب، مدنيين وعسكريين، فوجئوا بالحروب العربية ـ الاسرائيلية، وكانوا كثيراً ما يصدقون وسائل الاعلام المحلية في ان الطرف العربي هو «المنتصر». بل على الرغم من الهزائم الواضحة، يبقى الناس، ومنهم المسيّسون، ووسائل الاعلام، يتحدثون عن «انتصارات» وهمية؛ ولا يكتفون بذلك، وانما يبنون عليها استنتاجاتهم، وتصوراتهم، السياسية و«النضالية».

ماذا يمكن ان ينشأ عن الوضع الجيو ـ بوليتيكي الحالي، والوضع السوسيو ـ اقتصادي الناجم عنه؟ طبعاً، لسنا في صدد وضع تنبؤات، أو توقعات، ونكتفي بالقول، ان كل الاحتمالات السيئة ممكنة: تفاقم الأزمات السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، العربية؛ نشوء انفجارات داخلية واقليمية؛ اندلاع اشتباكات حدودية، أو حروب، الخ. الأزمات الداخلية تصعّد الى تفجرات داخلية، أو خارجية، أو توظف من مراكز القوى الخارجية لصالح المخططات الأميركية ـ الاسرائيلية.

مسار ذلك، من المفروض ان تهتم به، وتدرسه، القوى العربية الوطنية، الرسمية والشعبية، بقصد الاستعداد له، وعدم الوقوع في مطبّات تزيد في اضعاف الامكانات العربية في الدفاع عن الذات.

الحاجة الى السلام

الطرفان، العربي والاسرائيلي، كلاهما بحاجة ماسّة الى السلام. ولا يعني ذلك انهما بحاجة فقط الى ابرام اتفاقيات سلمية، أو اتفاقيات هدنة، كما هو الحال القائم مع أغلب دول الطوق العربية.

البلدان العربية بحاجة الى سلام اجتماعي: ان القوى الاجتماعية المتنوّعة في هذه البلدان تحاول، سواء أكانت في الحكم، أم في المعارضة، ان تنفي بعضها بعضاً[١٣] وبالعنف؛ ويؤدي ذلك الى تفاعل اجتماعي تسلسلي يتمثل بالتوترات الشديدة الكامنة حيناً، والظاهرة حيناً آخر، والتي تعيشها البلدان العربية كلها.

والتوترات المذكورة لا تسمح بأي برامج تطوير، ذات أهمية فعلية؛ بل ولا تسمح، في كثير من الحالات، بممارسة الناس العادية لحياتهم. صورة لبنان الطائفي، الذي تقع فيه المجازر منذ زمن طويل، ليس فقط بين طائفة وطائفة أخرى، بل بين الكتل البشرية المنتمية الى نفس الطائفة، هي الصورة، التي ينتظرها اكثر من بلد عربي، اذا ما اختل فيه التوازن العسكري على الصعيد الداخلي. حتى «الحزبية»، التي من المفروض ان تؤلف ممارسة سياسية متطورة، كثيراً ما تؤلف، واقعياً، نوعاً من الطائفية الفقيرة، سواء بالنسبة الى «الايديولوجيا»، أم بالنسبة الى «الوطنية» بمعناها البسيط العادي. لذلك، تتغير التحالفات «الحزبية» و «الطائفية» من يوم الى آخر، وتحت الشعارات ذاتها، المتناقضة مع أبسط بدهيات الواقع.

هذه الصورة المخيفة تحتاج الى تغيير جذري. تحتاج الكتل الطائفية و«الحزبية» الى ان تجد صيغ تفاهم مع بعضها البعض، حتى ولو كان «الآخرون» أضعف، لأن الذين هم أضعف الآن يصبحون «أقوى» فيما بعد، أو قد تجعلهم صلاتهم الدولية «أقوى» بعد حين.

ولا تكفي لحل المشكلة هنا «ديمقراطية الانتخابات». فالانتخابات يمكن تزويرها بألف